قصة أبن السراج والجميلة شريفة (الموريسكية) دراسة تحليلية

أ.د. قصي عدنان سعيد الحسيني
كلية الآداب الجامعة المستنصرية /قسم اللغة العربية
dr.qusayadnan61@gmail.com

أسماء رمضان شاهين
مديرية تربية صلاح الدين
asmaa_ramadan@uomustansiriyah.e

الملخص:

لما كانت القصة أسلوب أدراكي شيق، فإن القصة الموريسكية حملت هذا الأسلوب الشيق، خاصة قصة ابن السراج والجميلة شريفة ،إذ عكست هذه القصة صورة العربي المسلم بطريقة إيجابية في المتخيل الإسباني ،وقد أعتمد هذا الفضاء الخيالي على الوقائع التاريخية تارة والخيال الدرامي تارة أخرى ،وكذلك تعكس التعاون بين المسيحي النبيل والمسلم الفارس رغم التنافر بين الثقافتين ورغم الصراع الديني القومي ، ومحاولة الاسباني توحيد شبه الجزيرة الإلبيرية على دين واحد وقومية واحدة ،وقد حوت هذه القصة شخوص تاريخية مما تعكس التأثير التاريخي في النصوص السردية ،وقد عثر على هذه النوادر الدرامية بين سطور التراث، وانتمت هذه القصة إلى حقبة حروب الاسترداد ،وهي من القصص الاسطورية الرومانسية ،التي تحدثت عن فارس مسلم يقع في حب امرأة جميلة تُدعى (شريفة) ،وكان هذا في خضم الصراعات بين الجانب المسيحي والمسلم إذ وصف القاص هذا المسلم بأوصاف تشير إلى الثراء من خلال ملبسه وهيئته وهي أوصاف تشير إلى عائلة بني السراج تلك الأسرة التي كُتِبتْ عنها الكثير من الاساطير ،وتضمنت القصة الكثير من المغامرات وانتهت بوفاء الفارس المسلم بعهده لمحبوبته والزواج بها .

الكلمات المفتاحية :أبن السراج ،الجميلة شريفة ،دراسة تحليلية، الوفاء ،العهد

Abstract:

Since storytelling is an engaging cognitive method, the Morisco tale adopted this captivating style—especially the story of *Ibn al-Sarraj and the Beautiful Sharifa*—which positively portrayed the image of the Arab Muslim in the Spanish imagination. This imaginary space was at times based on historical facts and at other times on dramatic fiction. The story also reflects a spirit of cooperation between the noble Christian and the Muslim knight, despite the cultural divide and the ongoing religious and nationalistic conflict, as Spain sought to unify the Iberian Peninsula under one religion and one nationality.

The story features historical characters, reflecting the influence of history on narrative texts. These dramatic tales were found among the lines of heritage literature and belong to the period of the Reconquista. This particular story is part of the romantic legendary tales, telling of a Muslim knight who falls in love with a beautiful woman named Sharifa. This takes place amidst the conflicts between Christians and Muslims, with the narrator describing the Muslim character in terms that imply wealth—through his clothing and appearance—signifying his belonging to the Banu al-Sarraj family, a lineage surrounded by many legends.

The story includes numerous adventures and concludes with the Muslim knight honoring his promise to his beloved by marrying her.

Keywords: Ibn al-Sarraj, the Beautiful Sharifa, analytical study, loyalty, promise.

المقدمة:

عنيت الكثير من الأعمال الأدبية بالواقع الموريسكي بعد تسليم مملكة غرناطة ،ومنها هذه القصة (أبن السراج والجميلة شريفة) التي نقلت واقع مأزوم وقتذاك خيّم عليه الصراع المسيحي المسلم ،ورغم مجهولية مؤلفها إلا إنها استطاعت أن ترسم لنا صورة واضحة عن طبيعة الحياة وقتذاك والصراع الغير متكافئ بينهما ،إذ صورت المسلم وحده والمسيحي الحاكم كان معه تسعة أشخاص يتفقدون الطريق ،ورغم أن المسلم كان وحيد والمسيحي ذو عدد وعدة إلا أن المسلم استطاع المقاومة ورفض الاستسلام وظل يقاوم حتى سقط منهكاً متعباً ليتمكنوا من أسرهِ ،وتعامل معه الحاكم كفارس نبيل فقرر مساعدته وتضميد جراحهِ ، بصورة مؤقته لكي يتمكن من الوفاء بعهده لخليلته على أن يعود إلى السجن ثانياً ،وبعد وفاء المسلم والعودة إلى السجن أطلق الحاكم سراحه جزاء نبله ووفائه .

قصة ابن السراج والجميلة شريفة (مجهول، ٢٠١٨)

المؤلف مجهول

يحكى أنه في عهد الأمير "دون فرناندو" الذي غزا انتكير Antequera كان هناك فارس يدعى رودريغيث دي نربايث، وكان فارساً عُرف بنبله وحمله للسلاح، وتم تخليده في الأدب كشخص يقدم على التضحية بنفسه، إذ خدم القانون والملك الذي نصبه عمدة للمدينة بعد فتحها، بعد أن اضطلع بدور كبير في حمايتها والذود عنه (مجهول، ٢٠١٨، صفحة ١٣).

وكان ابن السراج قد وقع في أسر الفارس الإسباني نربايث وتُعدُّ هذه القصة من القصص الرومانسية التي انتقلت عبر الأجيال في شبه الجزيرة الاسبيرية، وتحكي قصة الفارس المسلم ابن السراج الذي وقع في أسر عمدة مدينة أنتكيره ، وكان ابن السراج متوجها للقاء خليلته شريفة.

وتبدأ القصة عندما خرج تسعة من حرس الحاكم الإسباني رودريغيث دي نربايث يتفقدون الطريق، وبينما كانوا يسيرون في الطريق وجدوا طريقاً فرعياً، فقال لهم العمدة سيروا أنتم الخمسة في هذا الطريق، وسأذهب أنا مع هؤلاء الأربعة عبر الطرق الأخرى ، وبينما كان حاملو السلاح الخمسة يسرون ويتحدثون يسمع أحدهم صوتا، وقاموا بالاختباء خلف الأشجار على جانب الطريق وسمعوا لغطاً فأمعنوا النظر، حينئذ رأوا مسلما لطيفاً على صهوة حصان يتقدم نحوهم ، وكان بديناً وجميل المحيا، وذا هيبة فوق جواده ويرتدي قرمزية وبرنساً من الحرير الدمشقى من اللون نفسه، مطرزين بالذهب والفضة، وقد شمر عن ذراعه اليمنى. وكان منقوشاً عليها امرأة جميلة،

وفي يده سهم سميك وجميل ذو طرفين من الحديد ، وكان يحمل درعا، وعلى رأسه شال تونسي يزيده بهاءً، ودفاعاً عن النفس في لفته، وبهذا المنظر البهي كان الفارس المسلم ينشد أغنية ألفها في الذكرى العذبة لحبه، قال فيها: (مجهول، ٢٠١٨، الصفحات ١٤-١٥)

ولدت في غرناطة

تربيت في قرطمة

وأحببت في كوين

فارس حدود في الْورة.

"وتعتبر الفروسية والشعر شيئاً واحداً لا يفصل بينهما ،فمتى ما وُجد الشعر نجد للفروسية ذكراً فيه ،ولو كان عارضاً، لأن الفروسية ومضامينها جزءاً من حياتهم ،تتجلى لهم في كل وقت ومكان ...،فلقد ارتبطت الفروسية بالفخر ارتباطاً كبيراً...

خصوصاً فخرهم بإقبالهم على الموت في ساحات الحرب" (اللهيبي، ١٤٢٩-م٢٠٠٨، صفحة ٣٠)

في النص السابق وصف المؤلف الفارس بأوصاف تشير الى ثراء ذلك الفارس وربما اراد بذلك الوصف لملبسه وهيئته أن يشير إلى عائلته عائلة بني سراج، تلك الأسرة التي أثارت الاساطير حولها والتي تناولها الكثير من الكتاب ولا تزال تملأ أرجاء قاعة بني السراج في قصر الحمراء، وقد قدَّم الراوي في النصّ السابق الفارس العربي المسلم بصورة مشرقة ومثالية، وذكر أنه يضع شالاً تونسياً يزيده بهاءً دلالة على أصول بنى سراج التي تعود جذورها إلى الدولة المغاربية ،وقد مثلت هذه القصة فترة صراعات بين المسيحي والمسلم، ولكن هذه القصة تحاول قلب هذا التنافر والتشاحن الى ألفة وتفاهم، ويُلحظ ذلك خلال الحوار بين الفارس المسلم والحاكم المسيحي الاسباني ، أي بين ثقافتين، إذ قال الراوي : عندما مرَّ الفارس هجموا عليه ، وعندما وجد نفسه في هذا المأزق عاد بلطف بنفسه إليهم ليرى ماذا هم فاعلون به (وهذا اظهار حسن نية من المسلم للتحاور مع المسيحي)،بعدها هاجموه ثلاثة منهم، وأصابه واحداً منهم وأوقعه على الأرض مع حصان (مجهول، ٢٠١٨، صفحة ١٥).

وبعد هجومهم عليه، بدأ بدافع عن نفسه وبدا لهم قوياً، كانوا ثلاثة مسيحيين ضد مسلم ، ومع كلاً منهم كان يقدر على عشرة مسلمين لكنهم لم يقدروا عليه وحده، وقاومهم وطرح اثنين منهم أرضاً وجرح احدهم، وقام أحدهم عندما استدرك الخطر عليه ونفخ في القرن لكي يأتي اليهم الباقون لمساعدتهم، وهنا زادت المعركة حدة

وعندما حضر العمدة أصيب بالذعر لأنه رأى المسلم قد تمكن من الإطاحة بأربعة من رجاله على الأرض والخامس كان في الوضع نفسه تقريباً، فقال له:

أيها المسلم ، أقدم عليَّ ، فإذا هزمتني فسأحميك من الآخرين وكان المسلم يتألم فسقط فقال له العمدة: أيها الفارس اعترف بالهزيمة وإلا قتلتك. قال له المسلم: يمكنك أن تقتلني ، فأنت تتملكني ، لكنك لا تستطيع أن تهزمني ، فلم يهزمني أحد.

فقد عبرّ الفارس المسلم عن مفهوم البطولة ليس فقط من خلال شجاعته بل تجاوز ذلك ليشمل العديد من الخصائص النفسية التي تتجلى في الفضيلة الأخلاقية ،ولا سيما فيما يتعلق بالمرأة كما تضمن النبل والتمسك بالقيم العليا والإيثار والرغبة في إفادة الأخرين وهذه الجوانب تشكل جوهر البطولة (عبدالله، د،ت، صفحة ١٧٦)

لم يدرك العمدة سر هذه الكلمات وعمل بفضيلته المعتادة وساعده على النهوض وضمد جراحه، وفي الطريق تكلم عن كرم المسلم وشجاعته وسأله عن سبب مخاطرته هذه وبذله كل هذا الجهد، وطلب منه أن يثق به لكـي يساعده كنبيل.

في النص السابق بيّن الراوي مدى بسالة الفارس المسلم ورفضه الاستسلام، ويبدو أنه كان يعيش تحت وطأة محاكم التفتيش، ويحاول من خلال هذه القصة نقل صورة المسلم وقتذاك ،وما يؤكد ذلك هو عدم ذكر اسمه على الرواية وتركها مجهولة خوفاً من بطشهم وهذا ما أكده مترجم العمل خالد سليم ((إن هذا السياق الذي بدأ ليرد إلى المسلم المهزوم بعضاً من حقه)) (مجهول، ٢٠١٨، صفحة ٩،٨،٧).

وقد جمعت هذه القصة بين الاعتدال والتعصب ضد الإسلام فقد كانت تحمل تعاطفاً مع بطليها الشريف (أبن درايث–Abndarraez) وهو آخر ذراري هذه الأسرة الباقين في إسبانيا ،وقد رسم أبن داريث في هذه القصة صورة بني سراج باعتبارهم فرساناً ببلاط غرناطة (سالم، ١٩٩٦، صفحة ٤٧)

وهذه الأعمال كلها تنقل لنا صورة العربي الأندلسي في المتخيل الإسباني والحديث عن هذه القصص يحمل المتلقي دائماً إلى العصر الذهبي في الأدب الاسباني بما فيه القصة الموريسكية ولاسيّما هذه القصة التي تعد من الأعمال المهمة والرئيسة في تلك الحقبة التي شهدت ظهور أعمال أدبية مولدة كانت تمثل مرآة للتعايش بين ثقافتين مختلفتين وهي الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الإسبانية المسيحية ، في زمن كان يحاول النظام السياسي جعل الثقافة المسيحية الإسبانية هي السائدة كي يتمكن من توحيد الدين في شبه الجزيرة الإيبيرية، دون اعتراف بفضل الثقافة العربية الاندلسية التي ((حملت الأدب الإسباني الوليد إلى مصاف الآداب العالمية إلى يومنا

هذا ومن أبرز هذه الأعمال دون كيخوتي، والكونت لوكانور، ولاثاريو دي تورميس، ومسرحيات لوبي دي بيغا إلى جانب قصة ابن السراج وأعمال أخرى .

وتعكس هذه قصة (ابن السراج) خصائص القصة الموريسكية بصورة مثالية، وهي قصة حب لفارس نبيل وقع في حب امرأة جميلة اسمها شريفة، وكان هذا الحب في خضم الصراعات بين المسيحي والمسلم وأجواء من الاضطراب، ولكن مع ذلك كان ((هناك تعاون وتفاهم بين الفارس النبيل المسلم والعمدة المسيحي مع وجود لعنصر بذلل هذه العقبات وهو الحب ، حب ابن الريس لشريفة، وهو تيار يحاول إعادة خلق فضائل الفروسية في العصور الوسطى. بدلاً من البعد عنها على غرار دون كيخوتي)) (سليم، قصة أبن السراج ،نموذج للأدب الموريسكي في اسبانيا، ٢٠١٣) وقد تمثل هذا التعاون بين المسيحي والمسلم في إطلاق سراح العمدة لابن السراج عندما علم أن خليلته تنتظره لاستكمال مراسيم زواجهما، فقرر إطلاق سراحه، بشرط عودة الفارس المسلم ثانيا الى السجن فور إكمال مراسيم الزواج ،وعندما التقى الفارس المسلم بها وتزوجها سراً ، وعلمت الجميلة بما مر به زوجها قررت أن تبقى معه، وقالت شريفة: ((أراد الله ذلك أبداً، أن تكونوا أسرى وأنا حرة على أو لن أكون هكذا، أريد أن أصاحبكم في هذه الرحلة فعلاً الحب الذي أكنه لكم ولا الخوف الذي أشعر به تجاه والدي، إذا كنت قد أهنته لا يسمحان لي بعمل شيء آخر حينئذ بكي المسلم من الفرحة وعانقها ثم قال لها : إنكم يا سيدتي تزيدون الأفضال، فافعلوا ما تشاءون، فهذا هو ما أرغب به فيه)) (مجهول، ٢٠١٨، صفحة ٢٥)

وبهذه الكلمات اتفقا على السير مع بعض نحو قلعة رودرميغيث دي نربايت، وفي الطريق صادفهما كهلاً كان متوجهاً أيضاً إلى المكان نفسه وسألته الجميلة عن العمدة فمدحه ،وقال إنه صاحب فضائل كثيرة وقص عليهم قصته مع امرأة أحبها ولكنه لم يخن زوجها بسبب كلام الزوج عنه بالخير ،إذ لجأ إلى الفضيلة والشجاعة، وقد تغلب على إرادتهم،وقد أعجب ابن السراج وزوجته بهذه القصة واطمأنت شريف أكثر (للعمدة رودريغيث)وقالت أشياء لطيفة حول هذا (مجهول، ٢٠١٨، صفحة ٢٦،٢٧)

وبذلك عاد المسلم وبرفقته زوجته إلى الحصن وقد أوفى بالوعد الذي وعده للعمدة ، وقال : ((يا رودريغيث دي نربايث، أنظر كيف أفي لك بكلمتي، لقد وعدتك بسجين، وجئت لك باثنين، فواحد يكفي لهزيمة آخرين أكثر، أنظر زوجتي هنا، أحكم ما إذا كنت قد عانيت من أجل قضية عادلة ، إننا أسيران، وأنا آتمن زوجتي وشرفي لديك، سعد رودريغيث دي نربايث كثيراً لرؤيتها)) (مجهول، ٢٠١٨، صفحة ٢٧)

وأخذ يفكر كيف يمكن أن يجازي الفارس المسلم على وفائه للعهد. وعودته إلى السجن ، وكذلك إعجابه بموقف زوجته التي جاءت معه حتى لا تفارقه، لذلك قرر الحاكم الإسباني إطلاق سراح ابن السراج وزوجته بلا

فدية! وهنا يظهر نبل وشهامة كلا الفارسين، العربي بوفائه بالعهد والإسباني بإطلاق سراحه جزاء هذا الوفاء ، وهذه القصة تحمل الكثير من معاني وأخلاق الفروسية التي يجب ان يتحلى بها كل فارس من كريم الاخلاق ونبل الصفات وقد مثَّلت قصة ابن السراج حلقة وصل بين الثقافتين الإسبانية والعربية، وتعود جذور هذه القصة إلى ما يسمى بالقصائد الشعبية الحدودية، وتعالج أحداثاً واقعية وقعت على الحدود نقاط التماس بين الثقافتين، مع منح الشخوص الإسلامية درجة عالية من المثالية، وهو ما يشاهد في شخص ابن الريس، واللافت للنظر أن هذا الجانب الإيجابي عن العرب لا يزال قائماً في مخيلة شريحة لا بأس بها من الاسبان اليوم، وقد مثلت هذه القصة ، فترة حرب الحدود بما تتضمنه من معارك ومناوشات من أجل إثبات الهوية لكلا الطرفين، وربما يعود ظهور هكذا نوع من القصص من لدن إسبان يلجؤون إلى وضع شخوص قصصهم بأسماء عربية وألقاب عربية أندلسية إلى أمرين (سليم، أدب الحدود بين القصة المويسكية والمسرح الإسباني ، ٢٠١٣)

- الأول إعجاب الإسبان بنبل الفارس العربي أو القادة العرب الذين حكموا الجزيرة الإيبيرية.
- والثاني : تعاطف الكتَّاب الإسبان مع العرب نتيجة الظروف الاجتماعية والسياسية التي كان يعيشها مسلمو الأندلس بعد التسليم تحت وطأة الحكم المسيحية، خصوصاً ان حقبة الحكم الإسلامي العربي كانت شبه الجزيرة الإيبيرية مزدهرة ، حيث عمرَ العرب الجزيرة خلاف الحكم الإسباني الذي سعى لهدم كل شيء.

"ويؤكد مضمون القصة على ماضي المسلمين الأندلسيين ،ويبين أن العادات الفاضلة والتقاليد الحميدة والشمائل الكريمة لهم ،وتؤكد على التأثير الذي أحدثه هذا المجتمع في صفوف المجتمع الآخر بلغ من صدق الأدب الأندلسي أن تأثيره لم يقف عند الحدود السياسية لدولة الإسلام في الأندلس بل كان له بالغ الأثر عند المسيحيين واليهود المستعربين ،كما كان أثر على ممالك أوربا كلها (خليل، ٢٠١٩) ،وهذه القصة تجاوزت حدود الدين ، إذ اتبعت الجميلة شريفة حبيبها الفارس المسلم ابن الريس تاركة دينها وأهلها وقصر أبيها، لتعطي للآخرين درساً في التعايش من أجل الإنسانية الحرة والمطلقة والعابرة للدين والعِرق والقومية من أجل الحب "حبها لابن سراج"، الذي سلك الطريق إليها بالرغم من خطورته وعرض نفسه للهلاك مقابل الزواج بها إذ عبر الفارس المسلم منطقة حدودية معادية "ألورة". وهذه الصورة لها خلفية تاريخية وأحداث شهدتها مملكة غرناطة، إذ كانت حروب الاسترداد ما زالت قائمة كذلك تبين نبل العمدة المسيحي الذي تعاطف معه وأطلق سراحهُ لكي يتمكن من الوفاء بعهده لمحبوبته التي كانت بانتظاره، وهنا ظهور أخلاق الفرسان الذين لا يخلفون العهود، إذ مثلت هذه القصة المسلم خير تمثيل ، قبالة الحاكم المسيحي العادل.

ويظهر في هذه القصة الأثر الثقافي الذي يعكس البيئة الأندلسية المتنوعة حضارياً ومعرفياً بين التراث العربي والأثر الإغريقي واليوناني، وتجتمع هذه العناصر لتشكل الصورة الشاملة للفكر الأندلسي ،الذي أستطاع استيعاب معارف البشرية في عصره ،واتسم هذا الفكر بالتنوع والتميز حيث نجح في دمج العناصر المتناقضة داخل إطار فريد من نوعه مما يعكس التركيبة البشرية والثقافية المتنوعة والمتفاعلة على أرض الأندلس (الساعدي، ٢٠٢٢).

ويجد القارئ متعة كبرى، وهو يقرأ لهذا الكاتب الكلاسيكي الطيب ،والأصل ليس فيما يتعلق بمضمون القصة العميق في حد ذاته وحسب، بل على اعتبار الأجواء المحيطة بهذه الحكاية الطريفة التي تذكرنا بماضي أجدادنا الزاهر ،ومجدهم الغابر في الأندلس ،كما تضعنا هذه القصة المثيرة كذلك إزاء العادات الفاضلة والتقاليد الحميدة ،والشمائل الأصيلة للمجتمع العربي والأمازيغي وتطلعنا على جوانب التأثير الذي أحدثه هذا المجتمع المتناغم في صفوف المجتمع الآخر (الخطابي، ٢٠١٨)

الخاتمة :

من خلال هذه الدراسة تبين للباحثة النتائج الأتية :

١- رغم أن الصراع كان ديني إلاّ أن هذه القصة تجاوزت حدود الدين إذ اتبعت الجميلة شريفة حبيبها الفارس المسلم .
٢- التزام الفارس بعهده وكذلك العمدة المسيحي محاولة لإعادة خلق فضائل الفروسية في العصور الوسطى .
٣- رغم التنافر والاضطرابات والصراعات بين المسيحي والمسلم إلا أن هناك ما يذلل العقبات بينهما وهو الحب .
٤- صورة العربي المسلم الإيجابية لا تزال في المخيلة الاسبانية إلى اليوم
٥- صورت القصة حقبة تاريخية مهمة وهي فترة حروب الاسترداد إذ وقع اللقاء بين الفارس المسلم (ابن السراج والعمدة وحرسه) على منطقة حدودية معادية وهي (ألورة)
٦- عكست القصة أحداث حقيقية حدثت في مملكة غرناطة لأنها من القصص التي تحمل خلفية تاريخية.

المصادر والمراجع:

١-المؤلف مجهول. (٢٠١٨). *قصة أبن السراج والحميلة شريفة* (المجلد ١). (خالد سليم، المترجمون) القاهرة، مصر : المركز القومي للترجمة.

٢-خالد سليم. (٢٠١٣). أدب الحدود بين القصة المويسكية والمسرح الإسباني . *صحيفة الحوار المتمدن*.

٣-خالد سليم. (٢٠١٣). قصة أبن السراج ،نموذج للأدب الموريسكي في اسبانيا. *الحوار المتمدن*.

٤-سحر عبد العزيز سالم. (١ يناير, ١٩٩٦). بنوسراج وزراء بني نصر ،بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية. *مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد*، صفحة العدد ٢٨.

٥-لقاء موسى الساعدي. (فبراير, ٢٠٢٢). المجهول من الأدب المورسكي قراءة في قصة أبن السراج . *مجلة الكلمة ، العدد ١٧٨* .

٦-محمد حسن عبد عبدالله. (د,ت). *مقدمة في النقد الأدبي* (المجلد د.ط). بيروت: دار البحوث العلمية.

٧-محمد محمد الخطابي. (١٨ فبراير, ٢٠١٨). أبن السراج والحسناء شريفة ،قصة حب وشهامة موريسكية . *هسبيرس*.

٨-محمود خليل. (١٦ مايو , ٢٠١٩). أبن السراج والجميلة شريفة . *مجلة السياسة*.

٩-منى بنت بخيت بن عويبد اللهيبي. (١٤٢٩-م٢٠٠٨). *الفروسية في الشعر (بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ) دراسة موازنة* . المملكة العربية السعودية : جامعة أم القرى.